رحمة الله ليست في يد أحد من خلقه

الكاتب: عبد الله بن صالح العجيري وفهد بن صالح العجلان

https://murabet.com

أباطيل وشبهات تعزيز اليقين فكر مقالات

أصل الإشكال

هذه المقولة من المقولات الرائجة على ألسنة الناس، وهي في الأصل لا إشكال فيها، فرحمة الله تعالى ليست في يد أحدٍ من خلقه، وليس لأحد أن يتألى على الله تعالى فيها، بل هو مقام خطر جدًا، صح فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك ﴾، فهي إذن مقولة صحيحة لا غبار عليها.
إنما الإشكال في بعض السياقات المعينة التي يستعان فيها بهذه المقولة، وتتكرر بتكرارها، وكم من سياق جعل كلمة حقٍ توهم باطلًا، ورضي الله عن علي حين قال في جنس هذا: كلمة حقٍ أريد بها باطل. فالسياق الذي تُذكر فيه هذه المقولة أحيانًا والتي تجر إلى اعتقاد الباطل والترويج له هو سياق الترحم على موتى الكفار.
وهذه قضية جدلية تتكرر مع موت أي عَلَمٍ مشهور من غير المسلمين، فإذا مات عالم أو ناشط أو مخترع أو رجل أعمال وهو كافر، فإن شرارة الجدل حول حكم الترحم عليه تنطلق في المشهد، وتشتغل شبكات التواصل الاجتماعي بإثارة هذه القضية، ما بين مؤيد للترحم، يرى في ذلك وفاءً وحسن خلق، ويمارسه فعليًا فيقول: رحمه الله، وغفر له، وقد يدعو له بالجنة ونحو ذلك، كما يفعل تمامًا مع موتى المسلمين. وآخرين على الضد يرفضون ذلك، معتقدين أن مثل هذا التصور وهذه الممارسات مخالفة للأصول الشرعية.

تدبر نصوص الشريعة

ومن تدبر نصوص الشريعة في هذا جزم برجحان كفة الفريق الثاني المتحفظ من إعطاء الكفار مثل هذا الفضل، ومن تلك النصوص:

https://murabet.com

(ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله).

(ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم).

(استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله).

ومما يؤكد دلائل هذه الآيات حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت».

فهذه النصوص كما ترى صريحة في المنع من الترحم والاستغفار للكفار بسبب موتهم على الكفر، وهو ما يُشكِّل أحد المعاني الضرورية المدركة من دين الإسلام، فمن قطعيات الدين التي يؤمن بها المسلمون أن النجاة في الآخرة مرتبطة بالإيمان بالله ورسوله، وأن من لم يؤمن به فلا نجاة له، وهذا أصل قطعي ظاهر لا يختلف فيه.

العجيب أن هذا الأصل القطعي يكثر انتهاكه مع وفاة كثير من مشاهير الكفار، ولعل المحرك الفاعل هنا هو في تأثير الحالة العاطفية الآنية التي تراعي الموت وتشفق على الميت، فترى أن من التعاطف معه والشفقة عليه الدعاء له بالرحمة والمغفرة، وفي هذا السياق تأتي هذه المقولة: الحمد لله أنه لم يجعل رحمته بيد أحد من خلقه، كمقولة توظف للرد على الرافضين المتحفظين من الدعاء لذلك الميت بالرحمة، وقد يؤكد هذا المعنى فيستدل بمثل قوله تعالى: (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ ربك).

هل ندعي امتلاك رحمة الله؟

ويظن بعض أولئك أننا حين نقول بحرمة الترحم عليهم، فنحن ننطلق من اختياراتنا الخاصة، وكأننا ادعينا أن أمر الرحمة هي بأيدينا، فيريدون تذكيرنا

https://murabet.com

بأنها ليست إلينا، وإنما هي بيد الله وحده. وهذه طريقة تائهة في النقاش، فمن يمنع من الترحم على الكفار فإنما يمنعه بسبب أن الله منعنا من ذلك، وأخبر أنه لا يرحمهم، فسؤال الله تعالى ذلك بعد منعه له اعتداءٌ محرمٌ في الدعاء لا يجوز، يقول ابن تيمية رحمه الله: (ومن الاعتداء في الدعاء: أن يسأل العبد ما لم يكن الرب ليفعله، مثل: أن يسأله منازل الأنبياء وليس منهم، أو المغفرة للمشركين، ونحو ذلك).

فإذا كنت صادقًا بأن رحمة الله ليست بيد أحد من خلقه وإنما بيده سبحانه فيجب أن تؤمن بأن الله قد أخبرك بأن رحمته لن تنال الكفار، وإنما هي لأهل الإيمان به، (ورحمتي وسعت كل شيء، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والانجيل)، (والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم).

فالله قد جعل طاعته وطاعة ورسوله سبب الرحمة: (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون)، (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه لعلكم ترحمون) (واتقوا الله لعلكم ترحمون).

فالإيمان بأن الرحمة بيد الله معنى متفق عليه، ولا حاجة إلى ذكره هنا، إنما حقيقة هذه المقولة: أن أولئك الذين حكم الله تعالى بأن رحمته لا تنالهم هم محل لرحمته لأن الرحمة بيده، وهذا تكذيب لرب العالمين، فمن ملك الرحمة أخبرك بمن يستحقها ومن لا يستحقها، وكون الرحمة بيد الله لا يعني أن تضعها أنت حيث تشاء!

حسنات الدنيا وأعمال الخير

يقال هنا: لكن هذا الكافر فعل أمورًا حسنة رائعة، فتح المستشفيات، وخدم الإنسانية، وساعد المحتاجين، وبنى المساكن، ويعدد لك الإنجازات العظيمة التي فعلها هذا الإنسان.

وليس محل المنازعة بيننا هل قام بمثل هذه الأعمال أم لا؟ وإنما محل البحث

والمنازعة في سبب نيل رحمة الله الأخروية وشرط دخول الجنة، فصاحب هذه المقولة حين يورد هذه المنجزات الدنيوية يكشف عن جهله بقاعدة شرعية ضرورية وهي أن دخول الجنة له شرط لا بد منه وهو الإيمان: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورًا) فالإنجاز الدنيوي لا يستحق به الشخص النجاة في الآخرة إذا لم يحقق شرط الإيمان، ولهذا بعث الله الانبياء والرسل وأنزل الكتب ليؤمن الله به، ويطيعوه، وجعل ذلك هو ميزان النجاة في الآخرة وليس إنجازاتهم الدنيوية المحضة، وهذا أصل قطعي ظاهر في القرآن، وفيه من الدلالات ما يصعب حصره، فالله سبحانه قد جعل الجنة لمن أطاع الرسول والنار لمن عصاه: (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك الفوز العظيم، ومن يعص الله ورسوله ويتعدى حدوده يدخله نارًا خالدًا فيها) وهو شرط لقبول الأعمال الصالحة كما قال تعالى: (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أن كفروا وبرسوله).

وحكم على محادة الرسول ومشاقته بالنار: (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدًا فيها)، وحكم بأن مصير الكفار النار: (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرًا خالدين فيها أبدًا لا يجدون وليًا ولا نصيرًا يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) وحكم أنه لا يقبل غير دين الإسلام: (ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) وبين الله حالهم: (قل هل أنبئكم بالأخسرين حالًا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، أولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه فحبطت اعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا) ولهذا يتحسر الظالم على عدم اتباعه للرسول: (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا) وفي القران ذكر مصير الأمم السابقة بسبب تكذيبهم للأنبياء.

ولذا حين سألت عائشة النبي صلى الله عليه وسلم قائلة: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: (لا ينفعه، إنه لم يقل يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين).

ومن تمام عدل الله تعالى أنه يجازي الكافر بحسن صنيعه في الدنيا، قال

https://murabet.com

النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة من الدنيا، وأما المؤمن، فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة ويعقبه رزقا في الدنيا على طاعته».

النجاة الآخروية

أما النجاة الأخروية فلها مفتاح دلت عليه النصوص، ومتى خلا الإنسان منه فهو غير مستحق للنجاة وإن عمل ما عمل. وهذا أصل قطعي تدل عليه عشرات النصوص الشرعية، وهي تحمل المسلم على التصديق به واعتقاد أن رحمة الله في الآخرة والنجاة ليست بسبب الإنجاز الدنيوي، بل لا بد من الإيمان، ولذا حرم الترحم والاستغفار للكفار، وبات محلًا لإجماع أهل العلم، قال ابن تيمية: (فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع). وهذا يؤكد غلبة الحالة العاطفية التي طغت على بعض الناس فأصبح يجادل في بدهيات شرعية لا ينبغي أن تخفى على مسلم، فالحرص على تكرارها وتضخيم هذه الإنجازات هو من قبيل اللعب بوتر العاطفة حتى تعمي عقل الإنسان عن استحضار الحقيقة الشرعية القطعية في ربط النجاة بالإيمان.

الاستغفار والترحم

ومن الطريف هنا سعي بعضهم للتفريق بين حكم الاستغفار للكفار والترحم عليهم، فيمنع الأول ويجوِّز الثاني، وهو مسلك لا يخلو من حرفية شديدة تظهر صاحبها وكأنه ملتزم بدلالة النصوص المحرمة للاستغفار ليزعم أنها لم تحرِّم الترحم، وهذا مسلك باطل بداهة، إذ الترحم على الميت هو طلب عطاء للميت من جنس الاستغفار، فالمترحم يدعو الله أن يتجاوز برحمته عن خطايا الميت، ويدخله في جنته ورحمته، وهي معان حرمها الله تعالى الكفار كما سبق تقريره، ولذا جاء تنصيص الشريعة على إثابة الله تعالى للكفار باللعن بديلًا للرحمة (فلعنة الله على الكافرين) واللعن كما هو معلوم الطرد والإبعاد من

https://murabet.com

رحمة الله، ولذا حكى الله حال الكفار وإياسهم من رحمة الله فقال: ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي﴾، ومن طريف ما يؤكد هذا المعنى سعي اليهود لاستنطاق النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة لهم بالرحمة، حيث كانوا يتعاطسون عند النبي صلى الله عليه وسلم يرجون أن يقول لهم: يرحمكم الله، فيقول: «يهديكم الله ويصلح بالكم».
ونحن نجزم أن أكثر من يكرر هذه المقولة في سياق الترحم على الكفار لو نُبِّهَ على ما وقع فيه من غلط، وذُكِّر بمثل هذه النصوص الشرعية القطعية، لاستغفر ورجع، فهو يكرر مقولة متأثرًا بجمال صياغتها في سياق تمكن الأثر العاطفي عليه، ويغفل في غمرة هذا عن اللازم الكارثي المترتب على هذه المقولة، وكيف أنه سبب نقضًا لأصل شرعي قطعي لا ينازع هو فيه، فلا يمكن أن يعارضه ابتداءً، لكن المعارضة جاءت بسبب التساهل في تلقي مثل هذه المقولات.

اعتقاد الهلاك

بقي التنبيه على أن المنع من الترحم على الكفار المعينين ليس ناشئًا عن اعتقاد هلاكهم يقينًا وأنهم من أهل النار، وإنما هذه أحكام متعلقة بنوع الكفار، فالكفر سبب موجب لدخول النار، والكفار هم أهلها، أما هذا الكافر المعين المخصوص فمصيره الأخروي إلى الله، فنحن ممنوعون من الترحم عليه لتخلف شرطه فيه وهو الإيمان، إذ الدعاء به مختص بأهل الإيمان، أما من كان ظاهر أمره في الدنيا الكفر فنحن ممنوعين من الترحم عليه لتحريم الشارع له، لكن أمره إلى الله تعالى، فهو الذي يحكم فيه سبحانه بكمال علمه وحكمته وعدله، واعتبر في هذا بأحكام الكفار الدنيوية، فمن مات من الكفار فإنه لا يعامل معاملة الميت من أهل الإسلام، فإن الكفار لا يغسلون ولا يكفنون ولا يدفنون في مقابر المسلمين فكذلك لا يجوز الاستغفار لهم أو الترحم عليهم، أما أحكام الكفر الأخروية فمفوضة إلى الله تعالى.
والحق، أن مثل هذا الإشكال في الترحم على الكفار إنما وقع في بعض

https://murabet.com

النفوس لضمور بشاعة الكفر في نفسه، وتبدد الشعور بدناءة الكفر وخسته، وكونه أكبر الكبائر وأعظم الموبقات وأظلم الظلم، والواجب على المسلم أن يشعر بفظاعة هذه الجريمة وشديد قبحها، وليستحضر في هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار".

المصدر:

عبد الله بن صالح العجيري وفهد بن صالح العجلان، زخرف القول: معالجة لأبرز المقولات المؤسسة للانحراف الفكري المعاصر، ص314

الكلمات المفتاحية:

#زخرف-القول #رحمة-الله

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعنى بالضرورة تزكية الكاتب أو تبنى جميع أفكاره.

https://murabet.com